

تفسير البحر المحيط

@ 253 @ أن تقابل بغير ما تفعلون ، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه .
يوم محيط أي : مهلك من قوله : { وَأُحْطِطَ بِثَمَرِهِ } وأصله من إحاطة العدو ، وهو
العذاب الذي حل بهم في آخره . ووصف اليوم بالإحاطة أبلغ من وصف العذاب به ، لأن اليوم
زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه ، كما
إذا أحاط بنعيمه . ونهوا أولاً : عن القبيح الذي كانوا يتعاطونه وهو نقص المكيال
والميزان ، وفي التصريح بالنهي نعي على المنهى وتعبير له . وأمروا ثانياً : بإيفائهما
مصرحاً بلفظهما ترغيباً في الإيفاء ، وبعثاً عليه . وجيء بالقسط ليكون الإيفاء على جهة
العدل والتسوية وهو الواجب ، لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه . ونهوا ثالثاً :
عن نقص الناس أشياءهم ، وهو عام في الناس ، وفيما بأيديهم من الأشياء كانت مما تكال
وتوزن أو غير ذلك . ونهوا رابعاً : عن الفساد في الأرض وهو أعم من أن يكون نقصاً أو
غيره ، فبدأهم أولاً بالمعصية الشنيعة التي كانوا عليها بعد الأمر بعبادة الله ، ثم ارتقى
إلى عام ، ثم إلى أعم منه وذلك مبالغة في النصح لهم ولطف في استدراجهم إلى طاعة الله .
وتفسير معاني هذه الجمل سبق في الأعراف . بقية الله قال ابن عباس : ما أبقى الله لكم من
الحلال بعد الإيفاء خير من البخس ، وعنه رزق الله . وقال مجاهد والزجاج : طاعة الله . وقال
قتادة : حظكم من الله . وقال ابن زيد : رحمة الله . وقال قتادة : ذخيرة الله . وقال الربيع :
وصية الله . وقال مقاتل : ثواب الله في الآخرة ، وذكر الفراء : مراقبة الله . وقال الحسن :
فرائض الله . وقيل : ما أبقاه الله حلالاً لكم ولم يحرمه عليكم . قال ابن عطية : وهذا كله لا
يعطيه لفظ الآية ، وإنما المعنى عندي إبقاء الله عليكم إن أطعتم . وقوله : إن كنتم مؤمنين
، شرط في أن يكون البقية خيراً لهم ، وأما من الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال .
وجواب هذا الشرط متقدم . والحفيظ المراقب الذي يحفظ أحوال من يرقب ، والمعنى : إنما
أنا مبلغ ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأعمال انتهى . وليس جواب الشرط متقدماً
كما ذكر ، وإنما الجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه على مذهب جمهور البصريين . وقال
الزمخشري : وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان ،
ويجوز أن يريد ما يبقى لهم عند الله من الطاعات كقوله : { وَالْأَبْدَانُ الْقَرِيَّاتُ الْمَصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا } وإضافة البقية إلى الله من حيث أنها رزقه الذي يجوز أن
يضاف إليه ، وأما الحرام فلا يجوز أن يضاف إلى الله ، ولا يسمى رزقاً انتهى ، على طريق
المعتزلة في الرزق ، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة : بقية بتخفيف الياء . قال

ابن عطية : هي لغة انتهى . وذلك أن قياس فعل اللازم أن يكون على وزن فعل نحو : سجت المرأة فهي سجية ، فإذا شددت الياء كان على وزن فعيل للمبالغة . وقرأ الحسن : تقية بالتاء ، وهي تقواه ومراقبته الصارفة عن المعاصي . .

{ قَالَ لَوْ أَنِّي كُنْتُ عَلَيَّ بَيْتٌ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَن أُوْخَلَائِكَمُ إِلَّا لَئِيْلًا } : لما أمرهم شعيب بعبادة الله عباداً
أوثانهم ، وبإيفاء المكيال والميزان ، ردوا عليه على سبيل الاستهزاء والهزاء بقولهم :
أصلاتك ، وكان كثير الصلاة ، وكان إذا صلى تغامزوا وتضحكوا أن نترك ما يعبد آباؤنا
مقابل لقوله : { أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ } أو أن نفعل في
أموالنا ما نشاء مقابل لقوله : { وَلَا تَنفُسُوا أَمْوَالَكُمْ فِي الْبَالِ وَالْمَيْزَانِ } وكون
الصلاة آمرة هو على وجه المجاز ، كما كانت ناهية في قوله : { اتْلُ مَا أُوحِيَ
إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } أو يقال : إنها تأمر بالجميل والمعروف أي : تدعو إليه
وتبعث عليه . إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز ، وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم
بصلاته . والمعنى : فأمرك بتكليفنا أن نترك ، فحذف